

بين كوسوفو وجزين

بقلم بشاره منسى

النهار ٢٠٠١/٨/١٧

في شهر آب من كل سنة يتوجه فريق عمل مؤلف من خمسة وعشرين جامعياً وباحثاً الى دير في آيانابا قبرص، معروف عند رجال الجمرک بـThe Monastery، فيحنون له الرأس احتراماً، وذلك لرصد صحة السلم الاهلي في لبنان ومراقبة حرارة جسمه وجس نبضات قلبه. في ٦ آب، ٢٠٠١ اي نهار الاثنين، وجدنا ان المريض يتمائل للشفاء لان حرارته مستقرة وتتفسه طبيعي وقلبه ينبض بانتظام، خاصة بعد زيارة البطريرك مار نصرالله بطرس صفير للجبل حيث التقاه في المختارة وليد جنبلاط ولاقاه في جزين طيف سلفه مار بولس بطرس المعوشي وروح جان عزيز، ربيب الامام الغائب المغيب، موسى الصدر.

في ٧ آب، الثلاثاء، بلغنا ان صحة المريض الذي نراقبه بعناية، اي بالتقارير والارقام، تدهورت بعدما كنا قد سمعنا وشاهدنا على شاشة التلفزيون الهتافات واللافتات التي سيست الى اقصى الحدود زيارة البطريرك للجبل الجريح وجزين المرتبكة. ثم توالى الاخبار علينا تباعاً، من التوقيفات الى الهراوات الى الاستجابات ونتائجها. كنا، في الشكل وفي الاساس، ضد الشعارات التي اطلقت واللافتات التي رفعت لمناسبة زيارة غير سياسية، بل رعوية لبطريرك الموارنة للجبل، كما كنا قد اجمعنا على معارضة الاسلوب القمعي الذي اتبع في الرد على الشعارات والثأر من اللافتات.

ان الهراوات مهما تهاوت على الرؤوس لا تزيل الفناعات، والسجون مهما اتسعت لا تبدل الانتماءات. ان ضرب المراهقين العزل ضرباً مبرحاً يندى له الجبين يحتوي من عدم تمالك الاعصاب على القدر نفسه الذي يتضمنه من سياسة قصر النظر. كان رأينا في آيانابا، وحتى بعد التوقيفات، ان المجتمع اللبناني هو على طريق التماثل للشفاء لادراكه الحقيقة بنفسه، بالنقاش والتحاور والتسامح، كما نحن فاعلون في آيانابا، وكما جرى في جبل الشوف، وبالاحاح من الاخوان السوريين، من تفاهم بين اهالي القرى وعقلائهم ونشطاءهم، فكل ذلك البطريرك الماروني عندما التقى الزعيم الدرزي في دير القمر والمختلرة، فتعانقا. وانه من الضروري ان يعاود ما جرى في الشوف داخل ما سمي الشريط الحدودي في الجنوب، فينتقل اليه البطريرك مار نصرالله بطرس صفير ليلتقي الرئيس نبيه بري على ابواب معتقل الخيام حيث يرفع الصلاة كما في كنيسة سيدة اللت عن ارواح ابطالنا الشهداء فتعود اللحمة على ارض المجاهدين بعدما عادت اليه على ارض الموحدين.

إشترك معنا في اجتماع آيانابا، لتوضيح صورة السلم الاهلي في لبنان، وذلك بالمقارنة مع ما يجري في دول العالم التي اصابها الزلزال مثلنا، ديبلوماسي لبناني - سويسري مسؤول عن ثلث ارض كوسوفو، في القسم المتاخم منه لمقدونيا، في كل ما يتعلق بالشؤون الامنية والبلدية. وكان هذا اللبناني الاصل قد تحمل المسؤوليات نفسها في البوسنة والهرسك ومقدونيا وكرواتيا، وقد استعان لعرض مشكلات الدول التي مارس فيها مهامه الاصلاحية بتقارير وجدول وارقام وصور سينمائية. واسر الينا، آخر المطاف، وبعد اجتماعات عدة عقدناها حول موضوع البلقان للمقارنة بمشاكل لبنان وفلسطين، ان وضع كوسوفو ميؤوس منه، اما حال باقي الاقطار في البلقان التي تولى شؤونها فانها لا تحسد عليه.

ما تراءى لنا بعد هذا العرض البلقاني اننا في لبنان اصبحنا مدركين الخطأ من الصواب في ما جرى واين امست الاهواء والمراهات المسدودة الافق. على انه لا يمكن تحميل بُعد الحالين بما يعتقدون اقل سوءا من الحاضر، حسابات لبعض

المغامرين على جميع الصعد، اللهم اذا استطيع اثبات الجنون المستمر عندهم بالبراهين، واعطاء الاثباتات الدامغة على خطورتها، لأن التاريخ تجاوزها من غير رجعة في شتى احوالها واشكالها، كما صرح سيد بكركي في الديمان. في كل الاحوال ليس من مصلحة العدالة والحكم في لبنان تكبير الاتهامات كي نجعلها تبلغ حجم الاساءات. ان العدالة ليست مرهونة بأوقاتها بل تقاس بمعيار الحقيقة وحدها والامانة والمساواة والانصاف على جميع المستويات. على العدالة ان تستوي على قوسها بالقوة والجبروت ذاتهما أكان ذلك في بعيدا ام في صيدا. الميزان ميزان وقوسه قوس في برلين او في بيروت. يجب الاقرار ايضا ان القسم المسيحي الذي يتألم اليوم اكثر من غيره يلتحم بأكثريته بالبطيرك الماروني مار نصرالله بطرس صفير لأنه يائس مما اعتراه في الماضي، خائف مما يجري له في الحاضر، مرتاب مما قد ينتظره في المستقبل، بعد انهيار زعاماته التقليدية المعروفة وعدم بروز زعامات اخرى تعكس واقعه كما هي الحال في سائر الطوائف التي تؤلف لبنان الكبير.

لذلك تجد نفسها الجماهير المسيحية والمارونية خاصة، سالكة، من تلقائها، طريق بكركي مهما بدا للبعض ان هذا الطريق وعر وصعب المسالك او تحيط به الاشواك.

ان الحس الدفين عند المواطن مستشعر، في قرارة نفسه، ولو لم يبيح بذلك دائما على الملأ، بأن البطيرك الماروني مهما قست كلماته احيانا يستلهم باستمرار تاريخ لبنان وعنفوانه وليس تاريخ سيرته الفردية وعنفوانها. كان في نظر الذين اجتمعوا في آيانابا والخبير اللبناني السويسري ايضا، ان لبنان قياسا بما يجري في البلقان، هو في طور الابلال من مرضه. كان الشعور السائد عند المجتمعين ان وطننا قام وتوحد يوم التقى الخوري نصرالله بطرس من ريفون بالشيخ وليد ابن كمال في كنيسة سيدة النثل في دير القمر وباحة قصر المختارة. وان الامل كل الامل ان تتم الفرحة نفسها في قرى لبنان الحدودية وسير الضنية فتكتمل الصورة ويسير مار نصرالله بطرس على خطى معلمه الشاب البولوني الثلث يوحنا بولس الثاني.

اما ما تبقى من تحديات ومراهقات ومراهقات فلا بد ان تجلو الايام صالحها من طالحها وقمحتها من زؤانها وما سيبقى منها على قيد الحياة مما سيطويه الزمن فيذوب فيه ويزول منه. وقد عرف البطيرك، قبل غيره، حبة القمح من حبة الزؤان في تاريخ لم يمض عليه الوقت طويلا، كي ينسأه ونسأه وينسأه.